المنهج في التصوف

أ/أزبوش ساميحة

قسم الفلسفة جامعة الجزائر(2)

تمهيد:

ننطلق في مداخلتنا هذه بالتعريف بشخصية جزائرية، أنجبها القرن الرابع عشر، والمتزامن مع الحقبة التاريخية (1385-1471م)، دفنت عن أنظارنا ومعارفنا، فجل ما نعرفه عنها أنه وليّ صالح، على الرغم من أنه كان من بين المفاتيح الذهبية لفتح السجل التاريخي والحضاري لجزائر العلم والصمود والتحدي والتاريخ، بمعارفه الواسعة ومؤلفاته العديدة والقيمة، فلو كانت هذه الشخصية غربية لا نالت قصتها من الدراساتوالأبحاث وأذيعتأفكارها ونشرت آراؤها فكما قال ابن حزم: "لاذنب له إلاأن شمسه مطلعها الغرب".

والفضل في ذلك يعود لأستاذنا القدير الغني عن التعريف" عبد الرزاق قسوم" الأستاذ الجامعي والباحث الأكاديمي الذي تعامل مع المدارس الفلسفية، وخاض لجّج التيارات الفكرية، وعالج القضايا الثقافية، فمن الأمور التي تغافل عنهاالجميع هي صلة هذا المفكر الجزائري المسلم بالتصوف حتى يخوض الحديث عنه، فأستاذ الفلسفة والفكر ورئيس جمعية العلماء المسلمين"ابن الإصلاح"نشأ في أحضان"عبد الرحمن الثعالبي" ودرس في معهده وتتلمذ على يد مشايخه حيث يعتبر أولى الناس بالكتابة عن التصوف والبحث في أعلامه والتعامل مع مباحثه، فهو رجل عقلاني ووجداني يعطي ماللعقل للعقل ومالللقلب للقلب.

والتصوف كما أراه هو اتحاد العقل المتأمل والقلب المؤمن في الإنسان والمجتمع على أساس العلم والإيمان.

في هذا الإطار سيتناول موضوع هذه الورقة البحثية دراسة مفهوم التصوف ومنهج التصوف عند المفسر، المتكلم والفقيه"عبد الرحمن الثعالبي"على لسان الدكتور "عبد الرزاق

قسوم" الذي نفض الغبار على هذه الشخصية الجزائرية في كتابه" عبد الرحمن الثعالبي والتصوف"

وسيكون مرجعنا في ذلك كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، حيث صنفنا تصوف"عبد الرحمن الثعالبي" ضمنالتصوف الإسلامي، بعيد عن الشطحات الصوفية.

وفي البداية نوّد أن نعرف ب"عبد الرحمن الثعالبي" فهو أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف بن طلحة بن عامر بن نوفل بن موصور بن محمد بن سباع بن مكي بن ثعلبة بن موسى بن سعيد بن مفضل بن عبد البر بن فيسي بن هلال بن عامر بن حسان بن محمد بن جعفر بن أبي طالب، ولد "عبد الرحمن الثعالبي"(786هـ/1385م) بيسر بومرداس الجزائر وتوفي(872هـ/1468م) بباب الجديد–مسجد سيدي عبد الرحمن–الجزائر. وله مؤلفات كثيرة ومتنوعة ما يقارب 99مؤلفا نذكرأهمها: "الأنوار المضيئة الجامعة بين الحقيقة والشريعة"، "التقاط الدرر"، "رياض الأنس في علم الدقائق وسير أهل الحقائق"، «الجواهر الحسان في تفسير القران"... ولكي نوضح منهج التصوف عنده ارتقينا إلىإتباعالمنهجية التالية:

أولا: ضبط مصطلح التصوف ومعناه عند بعض العلماء.

ثانيا: مصادر تصوف الثعالبي.

ثالثا:المنهج في التصوف.

أولا:ضبط مصطلح التصوف ومعناه عند بعض العلماء:

التصوف في أيامنا هذه، صارت كلمة تحدث عند الكثير من الناس إشكالا، تحدث حساسية عند الخلق والسبب في ذلك السوء الذي وصلت إليهالأمة من التدهور، فيقال: "الحكم على الشيء فرع عن تصوره " فما المقصود من كلمة التصوف؟ وماهي مبادئه وقواعده؟

فالتصوف الذي يعرفه أئمة السلف من لدن الحسن البصري (ت110هـ/728م) إلىالمتأخرين الذين أدركناهم من مشايخنا هو: "الانشغال بتحجج الإنسان بركن الدين الثالث وهو الإحسان" فعلم الفقه اهتم بأركان الإسلامالأربعة: الصلاة، الصيام، الزكاة والحج وما يتبع من ذلك من معاملات. وعلم التوحيد الذي سمي بعد ذلك بعلم العقيدة، وهذه الكلمة لم تكن معهودة في عهد الصحابة ومن بعدهم ولكنه يسمى بعلم التوحيد والعقيدة استنبط من أركان الإيمان، وهو الركن الثاني من أركان الدين الستة، وبهذا فالتصوف هو العلم الذي اعتنى باستنباط الأحكام والآداب التي بها يصل الإنسان إلى تحججه بالركن الثالث من أركان الدين وهو مقام الإحسان، ويقول سيدي محمد فوزي الكركري في كتاب"كواكب الدرية في بيان الأصول النورانية":"لما كان علم القوم اشرف العلوم، حيث انه روح ذهننا الحنيف، وزهدة العلوم واصلها وأعلى مراتب الدين، كان لابد من توضيح معاني هذا الطريق، حتى يكون السير فيه على كل محب مريد لمعرفة الله، لمعرفة الحق عزوجل، علم التصوف هو أسمى العلوم وأرقها وأحبها إلى الحق عزوجل لأنه يأخذ بلباب قلب المريد ولباب قلب المسلم إلى الإخلاص في العمل، الإخلاص في العبادة والإخلاص في المعاملة حتى يوصله ذلك العمل ويظهر القصد من العمل وهو صدق العبودية لله عزوجل، فيتنور القلب بحقيقة العبودية لله سبحانه وتعالى، فكان علم التصوف هو ليس بمذهب ولا تيار فكري ولا..."

إذن تعريف هذا الأمر هو الأمر الراقي، هو أرقى أركان الدين التي نطلبها.نأتي بعد ذلك إلى الاسم، من أين جاء اسم التصوف؟

في الحقيقة كلمة"تصوف" لم تكن معهودة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان أهل هذا الطريق يطلق عليهم أسماء دلت على أحوالهم كالعباد، الزهاد، النساك، وهذا ما أشار إليه "ابن خلدون" في كتابه المقدمة:((التصوف من الصوف الذي اتخذه النساك لباسا)).[1]

ويمكن اعتبار"الجاحظ" أول من لقب ((النساك بأنهم الصوفية)) وهذا في كتابه "البيان والتبيين".[2]

ولقد قال الحسن البصري رضي الله عنه:((لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف، وهذا يدل على أن كلمة"التصوف" أتت من لباس الأنبياء، عزوفا منهم عن الدنيا، وترويضا للنفس والجسم معا.

كما ذكر الله طائفة من خواص أصحاب سيدنا عيسى عليه السلام، فنسبهم إلى ظاهر اللبسة، فقال عزوجل:((إذ قال الحواريون))الآية 112من سورة المائدة وكانوا قوما يلبسون البياض، فنسبهم الله تعالى إلى ذلك، وروي أن سيدنا عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر.

أما اشتقاق كلمة" التصوف" من حيث اللغة فيمكن ردها إلى:

1/ الصُفَّة: وهي مكان بمسجد كان يقيم فيه طائفة من الزهاد والفقراء، يسمون (أهل الصُفَّة) أو هي قبيلة كانت تجير الحاج وتخدم الكعبة.

2/من صوف القفا: وهي الشعرات النابتة في مؤخرّه.

3/يرى فريق أن تسميتهم"صوفية" جاءت من (الصف) واحد الصفوف، بمعنى ان الصوفي–من حيث حياته الروحية– في الصف الأول لاتصاله بالله.

ولقد اهتم بعض الباحثين بكلمة المتصوف والصوفي ومعناهما، بحيث هناك فرق بينهما إذ المتصوف هو المريد، أما الصوفي فهو الذي بلغ الكمال، أي الذي صافي ربه فصوفي، وتصبح"ال " في هذه الحالة موصولة، دخلت على فعل مبني للمجهول، ويمكن أن نسوق تأييدا لهذا قول أبي الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مأخوذا من الصوف

ولست انحل هذا الاسم غير فتى صافي، فصوفي، حتى سمي الصوفي[3]

لقد تعددت الأقوالإذن: في تحديد مفهوم هذا اللفظ"التصوف" حتى بات بالأمر العسير وهذا نظرا لاتساع مدلول هذه الكلمة ولأن التصوف أمر قلبي، وهو مقولة الوجدانيات الشخصية، وكل واحد يعتبر التصوف، هو ذلك الشيء الذي يدركه، ويشعر به، ولايمكن وصف حقيقة التصوف بتعريف عام، جامع، مانع، يتفق عليه الجميع، وذلك تماشيا مع الحكمة الصوفية القائلة:((الطرق إلى الله على عدد أنفاس البشر)).

***/معنى التصوف حسب أقوال بعض العلماء:**

نجد تعاريف التصوف متعددة الجوانب متباينة الغايات والطرق، لأن كل تعريف يعبر عن خلجات صاحبه النفسية. فسنحاول أخذ بعض أقوال العلماء والعارفين فيه لكي يتضح معنى التصوف وحقيقته : **فقال الشيخ أبو بكر الكتاني محمد بن علي رحمه الله:((** التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف))، ويرى الإمام الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه الأنوار القدسية :أن التصوف هو العمل بالعلم والشريعة الإسلامية على وجه الإخلاص والصدق، فرجال التصوف الأوائل كانوا كلهم علماء عاملين دعاة إلى الله ساروا إلى الله بالكتاب والسنة المطهرة، لذلك ظهرت أنوارهم وبقيت آثارهم فالتصوف حقيقة أن تتعلم العلم الشريف الذي هو فرض عيّن على كل مسلم ومسلمة ثم يعمل بهذا العلم الذي تعلمه ثم يسعى لاكتساب الصدق والإخلاص وذلك يكون بالاستعانة بالله تعالى والعكوف على الذكر والعبادة لتصفية الروح وتزكية النفس وشفاء القلب السقيم فلا تصوف بدون علم ولا ينفع العلم بلا عمل ومن قال بغير هذا فهو ليس من التصوف في شيء.

كما قال الإمام احمد بن حنبل رحمه الله : (لولده عبد الله يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة ويقول عن الصوفية لا أعلم أقواماً أفضل منهم) [4]

وهذا هو حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله يقول : (ولقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق).[5]

ويقول ابن عابدين رحمة الله تعالى:(ولا كلام لنا مع الصُدَّق من سادتنا الصوفية المبرئين عن كل خصلة رديَّة، فقد سئل إمام الطائفتين سيدنا الجنيد: إن أقواما يتواجدون ويتمايلون؟ فقال دعوهم مع الله تعالى يفرحوا، فإنهم قوم قطعت الطريق أكبادهم، ومزَّق النصبُ فؤادهم، وضاقوا ذرعا فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواة لحالهم). الرسالة السابعة، شفاء العليل وبل الغليل في حكم الوصية بالختمات والتهاليل ص 172-173 للفقيه الكبير ابن عابدين.

وقال أبو الحسن الندوي رحمه الله في كتابه المسلمون في الهند : يقول أبو الحسن الندوي في كتابه المسلمون في الهند: " إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص وإتباع السنة، والتوبة عن المعاصي وطاعة الله ورسوله، ويحذرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة والظلم والقسوة ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنه والتخلي عن الرذائل مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها، ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والإيثار، وعلاوة على هذه البيعةالتي كانت رمز الصلةالعميقةالخاصة بين الشيخ ومريديه إنهم كانوا يعضون الناس دائما، ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغيير الحال

أعتقد والله أعلم أن أقوال هؤلاء العلماء بينت وبشكل واضح حقيقة التصوف وبينت أن التصوف هو علم شريف ومستمد من الشرع وقائم على الشرع ولا يخرج عن الشرع فكيف يأتي سفيه ويقول أن التصوف علم مبتدع وليس له أصل في الشريعة وهو زندقة ورجاله زنادقة أعتقد أن هذا الكلام لا يخرج إلا من جاهل وحتى لا يأتي أحد ويسرد لنا أقوال بعض المتصوفة التي تخلف الشرع ويحتج علينا بها فسنذكر أقوال رجال التصوف المعتمدين الكبار

رحمهم الله تعالى لنبين حقيقة التصوف بشكل واضح وجلي فإليك أقوال العارفين أئمة التصوف بل ومؤسسي علم التصوف رحمهم الله تعالى :

فهذا هو سلطان الأولياء والعارفين سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله يقول: كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة هي زندقة، طر إلى الحق عزَّوجلَّ بجناحي الكتاب والسنة أدخل عليه ويدك في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك العبادات المفروضة زندقة وارتكاب المحظورات معصية. الفتح الرباني ص 179. ويقول كل باطن خالف ظاهراً فهو باطل

وهذا الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر باذي رحمه الله يقول: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق، وحسن صحبة الرفقاء، والقيام بخدمتهم، واستعمال الأخلاق الجميلة، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات، وما ضل احدٌ ف بهذا الطريق إلا بفساد الابتداء يؤثر في الانتهاء، **ويقول** : (من لم يحفظ القران ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)[6].

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي عن الصوفي: إنَّ سالك سبيل الله قليل والمدعي فيه كثير ونحن نعرفك علامتين له، الأولى: أن تكون جميع أفعاله موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيرادا وإصدارا وإقداما وإحجاما إذ لا يمكن سلوك هذا السيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها والثانية: لا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل فكيف يصل إلية من أهمل الفرائض.

وقد أثر عن السري السقطي رحمه الله تعالى أنه كان يقول: التصوف اسم لثلاثة معاني هو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعة ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله **ويقول** : المتصوف لا يتكلم بباطن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنَّة .

وورد عن العارف بالله الشيخ أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى أنه يقول : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة .

ويقول أبو الحسن الشاذلي رحمة الله : إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك أنَّ الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضها علي الكتاب والسنة إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة التي تبين أن الاستقامة على الشريعة المطهرة هي أفضل من أي كرامة .

وقال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: من ألزم نفسه آداب السنة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم في أوامره وأفعاله وأخلاقه.

وورد عن العارف بالله الشيخ أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى أنه يقول: قد درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحداً منهم لا يتصدر في الطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة **وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى** في مقدمة رسالته المشهورة متحدثاً عن الصوفية:(جعلالله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضَّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصَّهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق. صفَّاهم من كدورات البشرية، ورقَّاهم إلى محل المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفَّقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما مَنَّه سبحانه لهم من التقليب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يتَّكِلوا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال، علما منهم بأنه جلَّ وعلاَّ يفعل ما يريد ويختار من يشاء من العبيد،

لا يحكم عليه خلق، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ثوابه ابتداء فضل، وعذابه حكم بعدل، وأمره قضاء فصل).[7]

هذا شي من أقوال أئمة التصوف وأعلام الصوفية ونجدها كلها تدور حول إتباع الكتاب والسنة والابتعاد عما يخالفهما وكلها تدعو إلى مكارم الأخلاق، وإلى الخوف من الله تعالى، وإلى تقواه وابتغاء رضاه، تدعو إلى السخاء والحاصل أنها تدعو إلى جماع الخير وتنهي عن جماع الشر وفي هذا تبين لنا حقيقة التصوف وهي أنه علم يقصد به صلاح المسلم والوصول إلى رضا الله والالتزام بالشريعة وترك ما خالفها بالكلية وهذه هي غاية خلق الإنسان على هذه الأرض وفي هذا بيان واضح لمن أراد أن يتعرف على حقيقة التصوف . فهل فيما ذكر شيء لا يرضاه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؟! هل في هذا مالا يرضي العقل والدين ؟! أعتقد والله اعلم لا فهذا هو التصوف وهؤلاء هم الصوفية وما خالف هذا نضربه عرض الجدار بل ونضربه بنعالنا ونطيء عليه تحت الثرى.

وأختم بقول سيدي الشيخ العارف بالله عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه : (طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة فمن خالفهما فليس منا) وفي هذا القدر كفاية لمن أراد أن يعرف حقيقة التصوف والصوفية . فإن كان هذا هو التصوف فأي علم أشرف من هذا العلم والله أعلم.

ثانيا:مصادر تصوف عبد الرحمن الثعالبي:

ارتقينا للبحث عن مصادر تصوف عبد الرحمن الثعالبي من خلال مؤلفاته الكثيرة والمتنوعة ومنها:"حقائق التصوف" و"رياض الصالحين" و"التقاط الدرر" و"العلوم الفاخرة في النظر في أمورالآخرة" و"الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة"

والتي التمسنا منها جانبا كبيرا من التصوف الإسلامي الذي يستمد أصوله من الكتاب والسنة، ولهذا عمدنا البحث من الناحية النظرية عن المدارس التي استقر منها تصوفه وأهمها المدرسة الغزالية، ذلك أن خيوطها وأثارها ملموسة في كل كتاب من كتبه، ويظهر الشبه الواضح بين الطريقة التي سلكها الثعالبي، وبين النزعة الغزالية، في التأليف، وفي

الأفكار، والمواقف. واتفاق في نوعية الإنتاج لدى كل من الغزالي و الثعالبي، فقد أنتجالأولإنتاجه "إحياء علوم الدين" وضرب فيه بسهم وافر، في نقده للمجتمع، والعمل على السمو به، إلى قيم أنبل، وحذا الثعالبي حذو شيخه فألف "العلوم الفاخرة في النظر في أمورالآخرة" وكتاب "رياض الصالحين" وكتاب "التقاط الدرر" الذي يكاد يكون صورة طبق الأصل"لإحياء علوم الدين".

إضافةإلىتأثر الثعالبي بالغزالي ومؤلفاته فلقد تأثر بشخصيات صوفية أخرى منها: القشري والمحاسبي والبسطامي والقرطبي وعبد الحق الاشبيلي والشاذلي وبهذا يتبين الاتجاه الصوفي الذي ينهجه الثعالبي ويقول الثعالبي متحدثا عن الصوفية:"فسبحان من أيقظهمولأعمال السعادة يسرهم، فهُم أنجم النجاة يقتضي أثارهم الحائر، فمن وصل حبله بحبلهم، فقد ارتفع وارتقى، ومن اعتصم بالله وعمل بالكتاب والسنة، فقد استمسك بالعروة الوثقى.[8]

هذا من الناحية النظرية، وأما من ناحية السلوك العملي الذي سلكه الثعالبي، فان هناك عدة شواهد تقر بان ظاهره كان مطابقا لباطنه فالشيخ احمد بن زروق تلميذه قال: "كانت الديانة أغلب عليه من علمه" وكذا الملالي وهو احد المعاصرين للثعالبي يسوق فيما أورده عن شيخه السنوسي الذي هو تلميذ الثعالبي، قصة عن تصوفه، يقول السنوسي لتلميذه: "كنا يوما مع سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وعليه ثوب ابيض، وعلى رأسه عمامة عريضة مسدولة على ظهره فوقف شيخنا على مكان مرتفع، ونحن أسفل منه، فنظرت إلى ساقيه، فرأيت طرف ثوب من شعر ملاصق لجسده، فتعجبت من زهده رضي الله عنه، حيث جعل الثوب الذي هو من شعر مواليا لجسده، وجعل الثياب البيض من فوق ذلك، فمن رآه بتلك الثياب البيض يظن انه من الحياة الدنيا، وهو في باطن الأمر على خلاف ذلك"[9]

ومن خلال هذا نتبيّن حقيقة الثعالبي في محاولته التوفيق بين الشريعة والحقيقة حتى في اللباس و الشريعة: فهي الأحكام الفقهية الظاهرة، وبهذا تكون الشريعة اعم من الحقيقة، لان الشريعة تتسع لتشمل الجميع، أما الحقيقة فمرموقة على الخواص، وبذلك اعتمد الصوفية على أن مهمتهم أثقل من مهمة العوام، لأن عليهم ما على العوام، وما على الخواص معا.

أماالحقيقة التي يقصدها هي الحقيقة الصوفية: التصوف، بمقاماته وأحواله، وما إلى ذلك من الأشواقوالأذواق، والحب، والذاتية، أو الباطنية، والمواجد.ولذلك ألف كتابه:"الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة". ليؤكد التمسك بالكتاب والسنة، كأساس لكل زهد وتصوف حقيقي.[10]

ثالثا:المنهج في التصوف

كما نجد اختلاف في تحديد منهج الصوفية، فهناك من حدد أصول طريقته في سبعة أمثالالإمام سهل بن عبد الله ألتستري رحمه الله وهي: التمسك بالكتاب والاقتداء بالسنة، واكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، لزوم التوبة وأداء الحقوق.

وقال الإمام الحجة شيخ الشافعية النووي رحمه الله وهو أهل ثقة بإجماعالأمة:((أصول طريق التصوف خمسة: تقوى الله في السر والعلانية، إتباع السنة في الأقوالوالأفعال، الإعراض عن الخلق في الإقبالوالإدبار، الرضا عن الله تعالى في القليل والكثير، الرجوع إلى الله في السراء والضراء))كتاب مقاصد الإمام النووي والتوحيد والعبادات وأصول التصوف ص20. **وهذا هو سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمة الله يقول:**(قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تتهدم دنيا وأخرى وقعد غيرهم على الرسوم).[11]

ويقول الأمام مالك رحمة الله تعالى : (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق) من حاشية العلامة على العدوي على شرح الأمام الزرقاني على متن العزبة في الفقه المالكي، وشرح عين العلم وزين الحلم للأمام ملا علي قاري .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (حبب إلى من دنياكم ثلاث: ترك التكلف وعشرة الخلق بالتلطف والإقتداء بطريق أهل التصوف). من كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للأمام العجلوني.

وهذا هو الإمام الحجة شيخ الشافعية النووي رحمه الله وهو ثقة بإجماع الأمة يقول : (أصول طريق التصوف خمسة : تقوى الله في السر والعلانية، إتباع السنة في الأقوال

والأفعال، الأعراض عن الخلق في الإقبال والأدبار، الرضا عن الله تعالى في القليل والكثير، الرجوع إلى الله في السراء والضراء)[12]

وهذا هو الإمام السيوطي رحمه الله تعالى يقول : أن التصوف في نفسه علم شريف وأن مداره على أتباع السنة وترك البدع وعلمت أيضاً أنه قد كثر الدخيل فيه من قوم تشبهوا بأهله وليسوا منهم فأدخلوا فيه ما ليس منه فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع.[13]

وقال ابن خلدون رحمه الله تعالى في علم التصوف : (هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية، وأصلها العكوفُ على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراضُ عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفرادُ عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلمَّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية) [14]

إلا أن منهج "الثعالبي" نجده اعتدالي بحيث لا ينكر ضروريات الحياة كما انه يكره الانغماس في الحياة، ولا يدعوا إلى قتل الجسد وهذا نستشفه في مفهومه للمصطلحات الصوفية كالتوبة والورع والزهد وهذا عن طريق انتهاج منهج الكتاب والسنة التي تدعوا إلى التحرر من قيود الحياة المادية كالبذخ والترف والتوفيق بين الظاهر والباطن قصد كسب رضا الله عزوجل ورفض كل أنواع الجدل القائم حول المذاهب الشائعة، كوحدة الوجود والحلول.

كما نجد أيضا أن "الثعالبي" من دعاة التوفيق والتوحيد بين الدين والعلم، والتصوف بهذا المزج بين العلم والدين يؤكد حقيقة إسلامية هامة وهي أن العلم بدون إيمان هو خواء وجفاء وهدم للبناء وأن التصوف أيضا بدون علم هو شعوذة، ودجل وطقوس وبدع ما نزل الله بها من سلطان، فالعلم والعرفان متكاملان وهما مصنعان متعاونان على بناء المجتمع الفاضل وصياغة الإنسان المسلم الكامل، فلا تصوف إلا بفقه ولا علم إلا بإيمان.

وعموما تصوف الثعالبي تصوف سني عالج فيه مشكلات عديدة ومن أهمها مشكلة العلاقة بين الحقيقة والشريعة، فالحقيقة التي نعنيها هنا هي الحقيقة الصوفية التي اخذ منها موقفا صوفيا في كتابه "الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة" فهو لا يقصد الحقيقة العقلية التي قصدها الفيلسوف العقلي"ابن رشد" وهذا نظرا لبعد الشقة بين الاتجاهين ذلك أن "ابن رشد فيلسوف"، يغرف من بركتين هما اليونانية والإسلامية وحاول المزج بينهما، أما "الثعالبي" فهو متصوف، متمسك بالكتاب والسنة، لا يحيد عنهما، كأساس لكل زهد وتصوف حقيقي.

الخاتمة:

وما يمكن استنتاجه من التحليل السابق بأن المنهج الذي سلكه" الثعالبي" هو منهج تربوي تهذيبي يدور حول إتباع الكتاب والسنة والابتعاد عما يخالفهما، ويدعوا إلى مكارم الأخلاق، وإلى الخوف من الله تعالى، وإلى تقواه وابتغاء رضاه، يدعوا إلى جماع الخير وينهى عن جماع الشر وبهذا تبّين لنا حقيقة التصّوف الإسلامي.

أيها الإخوة أصحاب السماحة والفضيلة إنّني أحمل إليكم في ختام هذه الكلمة تحية حب صادق وإخاء، كما أدعوا لكم بالسداد والتوفيق والسلام عليكم.

المصادر والمراجع:

1. المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص467.
2. عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، عبد الرزاق قسوم، سلسلة الدراسات الكبرى، ص49.
3. المصدر نفسه،50.
4. كتاب تنوير القلوب وغذاء الألباب لشرح منظومة الآداب للسفا ريني، ص405.
5. كتاب المنقذ من الضلال،الإمام الغزالي، ص49.
6. طبقات الصوفية، أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر، ص488.
7. الرسالة القشيرية، للإمام أبي القاسم القشيرية، للإمام أبي القاسم القشيري، ص2.
8. عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، عبد الرزاق قسوم، سلسلة الدراسات الكبرى، ص62.
9. المصدر نفسه، ص62.
10. المصدر نفسه، ص61.
11. كتاب نور التحقق للشيخ حامد صغر، ص96.
12. كتاب مقاصد الإمام النووي والتوحيد والعبادات وأصول التصوف، ص20.
13. كتاب تأييد الحقيقة العلية، الإمام السيوطي، ص57.
14. المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ابن خلدون، ص328.